أثار «مشروع الشرق الأوسط الكبير» جدلاً متبايناً في الواقع إذ اختلفت حوله التفسيرات وتناقضات التحليلات وتعددت المواقف، .وفيما قوبل هذا «المشروع» برفض النظام العربي بمختلف مسمياته وتوجهاته ومكانته على الخارطتين العربية والدولية ،فإن الشارع العربي بنخبه وفعالياته الفكرية والثقافية والحزبية ،انقسم بدوره بين «معارض» و«مؤيد» و«متحفظ» في المقابل هناك محاور دولية لم تخف تحفظها على «المشروع» انطلاقاً من حساباتها السياسية ومصالحها الاستراتيجية في المنطقة.

الشرق الأوسط الكبير

حلم «أمريكي ـ صهيوني» مستحيل تحقيقه..؟

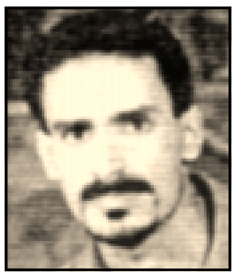

طه العامري

هذا التناقض الجدلي المتعدد الأطراف والأهداف والدوافع، لاشك أن له ما يبرره وقد يكون لكل طرف من أطرافه ـ الحق ـ فيما يطرح من أفكار ورؤى حول «المشروع» وعنه على خلفية ما لديه من مبررات ذاتية وموضوعية ،واتساقاً مع مفاهيم وعوامل ثقافية واجتماعية متداخلة الأطياف نمت وتراكمت في مراحل زمنية سادت فيها ثقافة الانتقاص والتهميش ،وطغت خلالها مفاهيم وقيم «مادية» ونزعات ذاتية أسفرت في مجملها عن ترسيخ حالة الاغتراب والقطيعة فيما بين الأنظمة والجماهير من ناحية وفيما بين الجماهير والنخب والفعاليات الاجتماعية من الناحية الأخرى حالة الاغتراب هذه لم تحصر نفسها داخل الساحة «القُطرية» بل امتدت لتشمل الساحة «القومية» ومن ثم تواصل تمددها لتشمل علاقة الوطن العربي بالعالم الخارجي..

بيد أن ـ هذا الاغتراب الاجتماعي والحضاري ـ أوجد بدوره منظومة من المفاهيم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .إضافة إلى ذلك برزت في واقعنا «القطري والقومي» أنماط من السلوكيات الاجتماعية كل هذه العوامل أدت مجتمعة إلى تشكيل مسارات اجتماعية متناقضة على الصعيدين الوطني والقومي ،لتفرض قيمها على حساب الثقافة الوطنية بعمقها القومي وبعدها الإسلامي ومداها الحضاري والإنساني..

وكما ذهبت ـ الأنظمة العربية ـ في توظيف منظومة التناقضات الداخلية، لخدمة أهدافها السياسية ،راحت بالمقابل بعض المحاور الدولية تستغل منظومة التناقضات الداخلية على المستوى القطري ،وتلك الماثلة على النطاق القومي لتجعل منهما عنواناً لتعاطيها مع الواقع العربي الذي وجد نفسه خارج نطاق التأثير وبعيداً عن دائرة الفعل بشقيه الوطني والقومي..

قد تكون الولايات المتحدة الأمريكية أكثر المحاور الدولية حضوراً في مسارات الواقع العربي الذي تشكل بريشتها وبذات الريشة تحاول اليوم تحديث أطياف هذا الواقع اتساقاً مع تحولات المرحلة وقوانينها ،وتقوم المبادرة الأمريكية لتشكيل «الشرق الأوسط الكبير» على «أربعة مرتكزات» هي :الديمقراطية ..حقوق الإنسان ..حرية الصحافة ..الانفتاح الاقتصادي ،يشمل المرتكز الأول :التعددية السياسية والحزبية من خلال تكوين احزاب ليبرالية شريطة أن لاتكون ذات ايدلوجيات دينية أو قومية ،فيما يشكل المرتكز الثاني ،حق الاعتقاد الفكري والسياسي وحق الاعتقاد الديني وحق التعبير والحركة والتنقل وكفالة حقوق الأقليات العرقية والدينية لغير المسلمين ،إضافة إلى حق المرأة في ممارسات كامل حقوقها وأبرزها حقها في التساوي مع الرجل في الحقوق والواجبات والأنشطة الإجتماعية والأرض والزواج والإنجاب.

أما المرتكز الثالث فيشمل حرية الصحافة من حرية الاصدار والتعبير عن الأفكار والقناعات والحصول على المعلومات إلى حرية إنسيابها وحرية الابداع والتلقي.

أما المرتكز الرابع والأخير فيتعلق بحرية الاقتصاد وإلغاء الحدود الجمركية وادخال اقتصاديات الدول ـ المستهدفة ـ في نطاق التنافس الحر بمعزل عن أي قيود أو تشريعات من تلك التي تندرج في سياق نظرية الحفاظ على «الاقتصاد الوطني» ..تلك هي أبرز مافي المبادرة الأمريكية التي سيقوم عليها «مشروع الشرق الأوسط الكبير» الممتد من أفغانستان حتى موريتانيا ..!

قد يقول قائل أن المبادرة «منطقية» وأن واقعنا العربي بشقيه القُطري والقومي يحتاج هذه المبادرة وهو في أمس الحاجة إليها ..إذاً فلماذ هذا الجدل والتباين والاختلاف حول ـ مبادرة ـ يتطلع إليها واقعنا ويتطلبها ونتمنى تحقيقها ...؟

لكن بالمقابل هل المبادرة الأمريكية تجسد رغبة حقيقية لدى ـ واشنطن ـ في احداث اصلاحات تخدم الجماهير العربية ـ الإسلامية ..؟

لانشك أن مرتكزات المبادرة ومحاورها تمثل غاية إنسانية وحضارية ،ولاأعتقد أن ثمة مواطناً عربياً أو مسلماً يقف ضد الإصلاحات أو يرفض التغيير الذي يمكنه من أن يكون سيد قراره وصانع مستقبله وتحولاته الاجتماعية والإنسانية.

وبعيداً عن جدلية «الرفض» و«الترحيب» و«التحفظ» وجدية المبادرة من عدمها ،علينا التوقف أمام منظومة التداعيات والتأمل بمسئولية في أهدافها وأبعادها الآنية والاستراتيجية بعيداً عن الانفعالات النزقة وردود الأفعال الغاضبة أو الترحيب بدافع الكيد للأنظمة رغبة في الثأر والانتقام منها كما أن «التحفظ» هو نوع من الاستسلام والهروب والانكسار ،وبالتالي فإن العمل الايجابي هنا يتجسد في التعاطي الواعي مع مجمل هذه التداعيات وبصورة حضارية تعكس عمق انتمائنا وعراقة ثقافتنا .

قد تكون مبادرة «الشرق الأوسط الكبير» بما أثارت من جدل هو حصيلة مايعتمل في واقعنا العربي ببعديه القُطري والقومي من تناقضات متراكمة تداخلت أطيافها كما تعددت أسبابها ودوافعها ..في ذات الوقت تبدو المواقف من المبادرة ولأول مرة نجد كل المبررات مقبولة وفيها قدر من الواقعية في سياقها العام وإذا ماأسقطنا الكثير من الاعتبارات والحسابات السياسية .إذ أن الرافض للمبادرة معه حق والمرحب بها معه حق وكذلك المتحفظ عليها أيضاً ..لكن ثمة اعتبارات وحسابات لابد من التعاطي معها وأبرزها أن نتعاطى مع المبادرة بموقف قومي غير قابل للتشطير والتجزئة.

بالمقابل لابد أن ندرك أن ـ المبادرة ـ تأتي في سياق استراتيجية قطبية لاتخدم واقعنا وان تخيلنا ذلك..!

وان كان الشرق الأوسط الكبير هو «الحلم الصهيوني» القديم ـ المتجدد فإنه ايضاً هدف استراتيجي «لواشنطن» التي تحصر نفوذها داخل هذا الامتداد الجغرافي وتحاول من خلاله العمل على تطويق «الصين» وتطويع أوروبا ،وفق معادلة استراتيجية تخدم «الوجود الصهيوني» وتعزز من مكانته وهيمنته على حساب الوجود العربي بكل مقوماته المادية والمعنوية والحضارية ..لذلك فإن ثمة عوامل موضوعية تجعلنا نواجه المبادرة والمشروع انطلاقاً من رؤية قومية ،وهي رؤية تظل رغم كل التداعيات الآنية الوسيلة الوحيدة المتاحة لإخراجنا من الشرنقة التي حشرتنا فيها الأحداث والتحولات ..كان يمكن أن تكون ـ المبادرة ـ محل ترحيب لو حملت في مفرداتها حلولاً لمجمل الأزمات المستعصية التي تسببت في وجود وتنامي الاختلالات الماثلة في المنطقة وأهمها حل القضية المركزية في الوطن العربي ،وهي قضية فلسطين ،التي وإن قبل النظام العربي التخلي عنها كما حدث مع العراق ،فإن هذا الانزواء خلف المتاريس القُطرية لايعفي النظام العربي من المسئولية ولايجعله في مأمن من تداعياتها والماثل خير دليل على أن فلسطين قد تكون «مقصلة النظام العربي» كما هي التحدي الحقيقي في مواجهة أية تحولات اجتماعية قُطرية ،ناهيكم أنها تنسف كل محاولات تجميل داخل هذه المجتمعات بيد أن الحديث عن محاولة اصلاح الواقع العربي بمعزل عن قضية فلسطين ليس سوى حديث للاستهلاك ومحاولة لترحيل الأزمات العربية نحو المستقبل الذي لم نعد نملكه أو نتحكم فيه بل هو من يملكنا ويتحكم بمصيرنا تماماً كما هو الحال مع الحاضر الذي اخفقنا في التعاطي مع أحداثه وتحولاته أو التحكم بها ..

لكل ماسلف فإن الواقعية تحتم علينا أن لانتخذ من «مبادرة امريكا» وسيلة لتصفية حساباتنا مع الأنظمة أو الكيد لها وان اختلفنا معها لأن القضية لاترتبط بهذا النظام العربي أو ذاك بل ترتبط بمصير أمة هذا من ناحية ومن الأخرى فإن منظومة التحولات الاجتماعية لاتفرض ليس من محاور خارجية وحسب ،بل لاتقبل حتى من النظام السياسي القُطري ،لأن هذه التحولات لابد أن تكون حصيلة وعي اجتماعي وتعبر عن تطلعات هذا الواقع ..وان كنا فيما سبق قد استلهمنا التجربة «السوفيتية» وحاولنا تطبيقها على اجزاء من واقعنا العربي ـ الإسلامي لندرك بعد عقود من المآسي والجراحات النازفة ،إننا اخطأنا في اقتباس التجربة ،فلماذا نعيد ذات الأخطاء مع الثقافة الليبرالية؟

ثم لماذا تحاول بعض النخب العربية أن تسوق تجربة «مجلس الحكم في العراق» وتعمل على اقناع المتلقي العربي بإعادة تجسيد مأساة وملهاة ذلك «المجلس» داخل هذ القطر أو ذاك..؟

ان بعض النخب العربية دفعها حقدها على الأنظمة إلى تلمس مساعدة «الشيطان» كما هو حال «مجلس الحكم في العراق» الذي يعيش حالة إنتحار وليس «إنتصار» كما يزعم اتباعه والمعجبون بدوره..؟

ادرك أن النظام العربي تخلى عن كل ثوابته الوطنية والقومية عندما امتثل لرغبات ـ واشنطن ـ وساعدها في انجاح مخططاتها في الوطن العربي حتى وصل إلى مرحلة أصبح فيها هذا النظام العربي مجرداً من السيادة والإرادة وعاجزاً عن اتخاذ قراراته المصيرية ،قبل أن يجد نفسه مطالباً بما لا يمكن أن يقدمه ،لأن فاقد الشيء لايعطيه ،والمطلوب فوق القدرة والاقتدار ؟لماذا ؟وهل من تنازل عن فلسطين وتخلى عن العراق ،ومنح «أمريكا» قواعد عسكرية احتلت نصف مساحة بعض الأقطار ،كما قدم الجميع تسهيلات وابرم اتفاقيات أمنية وعسكرية ،وأصبح فيهم الشريك الفاعل في «مكافحة الإرهاب» وفيهم الحليف الاستراتيجي ،هل من قدم كل هذه التنازلات يعجز عن الالتزام بوثيقة الاصلاحات..؟

وأقول دون تردد نعم ،ان من قدم كل هذه التنازلات وعلى مدى عقود يعجز عن الاستجابة لمطلب «واشنطن» ولعوامل موضوعية لاترتبط بمصير النظام العربي ومستقبله كما يحلو للبعض أن يصور الأمر أو كما يبدو في سياق الاحداث ،بل ان الأمر أبعد خطورة وأعمق غوراً ،لأنه يأتي وكأنه مكافأة «للكيان الصهيوني» الذي تجعله المبادرة عضواً أصيلاً وفاعلاً في النسيج الجغرافي والثقافي